عنوان المقال: الفكر الإصلاحي–التجديدي للشيخ محمد عبده وأثره على الحركة الإصلاحية في الجزائر (1903– 1931)

أ. منير صغيري

جامعة أبو بكر بلقايد –ولاية تلمسان– لسنة 2012–2013.

ملخص باللغة العربية:

تتناول هذه الدراسة الملامح البارزة للفكر الإصلاحي–التجديدي للشيخ محمد عبده، من حيث دعوته لانفتاح الفكر الإسلامي التقليدي على المنظومات الفكرية والمناهج العلمية الحديثة، وبعث وإحياء الأسس العقدية الصحيحة للدين الإسلامي، والتي صارت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين سببا في تخلف المسلمين وإذعانهم للمستعمر، من خلال عقيدة القدرية و"المكتوب". ثم دور تلك أفكار في بعث الحركة الإصلاحية في الجزائر، والتي ظهرت بشكل جلي مع بروز جَمْهرة من رواد الإصلاح والتجديد الذين شكلوا "حزبا عبدويا" رسمت مبادئه الفكرية؛ المعالم الكبرى للأسس الفكرية النضالية الإصلاحية في الجزائر، بعد أن نهلوا من معين فكر الشيخ عبده، رفقة ثُلةٍ من إخوانه في المنظومة الإصلاحية؛ أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد رشيد رضا، وحصرنا فترة الدراسة بين 1884 وهي السنة التي برز فيها الشيخ عبده كمصلح في العالم الإسلامي من خلال التحاقه بباريس وتأسيس جمعية ومجلة العروة الوثقى، وما كان لذلك من أثر على بواعث النهضة والإصلاح في الجزائر وكذا زيارته لتونس في خضم سنة 1884. وسنة 1931 وهي السنة التي بَانت فيها بشكل جليّ العلاقة التأثيرية لفكر الشيخ عبده (الذي توفي سنة 1905 لكن بقي فكره حيا) ورفقائه من أقطاب الجامعة الإسلاميّة مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين، للنهوض بالمبادئ والأهداف التي سطّرها الشيخ عبده وأَوْرثها للرّعيل الأول من مصلحي الجزائر.

Résumé en langue française:

Cette étude examine les caractéristiques de la pensée importante réformiste-régénérative du Cheikh" Muhammed abdou", qui invitait à l'ouverture de la pensée islamique traditionnelle sur les systèmes de méthodes scientifiques intellectuelle et modernes .pour la relance des principales croyance (dogmatique) de la religion islamique, qui est devenue au cours de la seconde moité du 19ème siècle et le début du 20ème siècle, la cause du retard des musulmans et de la soumission aux colons à travers la doctrine du dogmatique de «elmaktoub» Ensuite, le rôle de ces idées pour la relance du mouvement de réforme en Algérie, qui est apparu clairement avec l'émergence d'un hôte des pionniers de la réforme et de renouvellement qui ont formé les principes "du parti Abdoui " peint intellectuelle ,les grands monuments des fondements de la réforme de la lutte intellectuelle en Algérie, après avoir été alimenté par une certaine idéologie de "Cheikh abdou", accompagné d'un groupe de ses frères dans la réforme du système; tels que: "Jamel eddine afghani" et "Muhammad Rachid Rida", et la restriction de l'étude entre 1884 C'était là où apparu Muhammed abdou comme un vrai réformateur dans le monde musulman En se joignant à paris à la fondation de (l'association la revue suprême de l'unification) et ce qui a été son effet sur les motifs de la renaissance et de la réforme en Algérie, ainsi que sa visite en Tunisie En 1884 et En 1931 c'était l'année qui rendait clairement la relation d'influence de la pensée de Cheikh "Muhammed abdou" (qui est mort en 1905 mais ces pensées

sont restées en vie) alors que ses collègues dirigeants de isl communité amique avec la fondation de l'association des savants musulmans, afin de promouvoir les principes et les objectifs anti-rétrotivale de Cheikh abdou et transmis comme l'un des premiers réformateurs en Algérie.

الفكر الإصلاحي التجديدي للشيخ محمد عبده وأثره على الحركة الإصلاحية في الجزائر (1884– 1931)

مقدمة:

إن الحديث عن الإصلاح خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يسوقنا للخوض في صفحات مسيرة قطب الجامعة الإسلامية الشيخ محمد عبده؛ الأب الروحي لها بعد أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني، ذلك انه عمل رفقة إخوانه في العقيدة الإصلاحية على بث موقظات بمثابة منبهات للعالم الإسلامي الذي كان يغط في سبات عميق، الأمر الذي وفر العوامل المساعدة على الاستعمار أو " ظاهرة القابلية للاستعمار "، من هذا المنطلق بث الشيخ عبده فكره الإصلاحي الذي تمحور حول إصلاح الدين والعقيدة ونبذ البدع، والقدرية بالدرجة الأولى، ثم الحث على الاتحاد والجماعة، ولملمت الشتات السياسي للعالم الإسلامي في جامعة إسلامية توحده وتَصهَرهُ في بوتقة متماسكة واحدة، قوامها الخلافة، وفيما يلي نتعرف على شخصية محمد عبده من حيث المولد والنشأة، وصدى فكره في الحركة الإصلاحية في الجزائر منذ 1884 وهو التاريخ الذي ظهرت فيه جمعية العروة الوثقى وجريدتها، وكذا هي السنة ذاتها التي زار فيها الشيخ محمد عبده تونس وما صاحب ذلك من احتكاك علماء الجزائر وطلبة الزيتونة الجزائريين به، ثم زيارة الشيخ عبده للجزائر سنة 1903، إلى غاية ظهور تجليّات تأثيره الفكري على الحركة الإصلاحية مع ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931.

1 – تكوين الشيخ عبده العلمي ومسيرته الإصلاحية:

محمد عبده حسن خير الدين المصري ولد بقرية " شبشير " من قرى المحافَظة الغربية، نشأ ببلدته "محلة نصر " إحدى قرى مركز " شبراخيت " بمحافظة البحيرة سنة 1226هـ الموافق لـ: 1849م، حفظ القرآن الكريم ثم انتقل إلى الجامع الأحمدي بـ " طنطا "[1] لتلقي دروس تجويد القرآن الكريم سنة 1862 وكان وقتها عمره لا يتجاوز ثلاثة عشر عاما لكن عقم أساليب التدريس جعلته في حالة عزوف عن الدراسة، فهجرها عائدا لقريته بعد عام واحد، وفكر جديا في احتراف الزراعة، ولكن والده رفض رغبته، وقرر إعادته إلى الجامع الأحمدي سنة 1864[2]. ثم انتقل إلى جامع الأزهر بالقاهرة عام 1866م، ليواصل تحصيله العلمي. لقد تعلم محمد عبده على يد مشايخ الجامعين (الأحمدي والأزهري) وعلى طريقتهم في التعليم، وإن كان قد وقف على أحوال هؤلاء المشايخ الذين يعيشون في عزلة عن العالم فلا يشعرون بما أصاب الإسلام والمسلمين، ولا يهمهم إلا أنفسهم داخل الأزهر، وبقوا على الجمود في العلوم القديمة دون الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة [3].

لقد نشأ محمد عبده في صباه، نشأة بسيطة شأنه شأن علماء ذلك العصر، الذين كان لهم من الإمكانيات والمؤهلات الذهنية ما جعلهم يتفوقون ويتجاوزون مختلف العقبات التي تقف في طريقهم، كالفقر، وظروف الريف القاسية، فأصبح عالما مرموقا، ومصلحا ذائع الصيت في العالم الإسلامي، ذا مهابة سياسية نتيجة إمكانياته الفكرية وإحساسه الدائم بالمسؤولية تجاه أمته، فقد قال فيه خصمه الخديوي عباس " أنه يدخل علي كفرعون " وداعبه أستاذه الأفغاني " قل لي : ابن أي ملك من الملوك أنت ؟ " [4]. وقد استفاد محمد عبده من علم وتوجيه بعض المشايخ المتنورين أمثال الشيخ درويش الصوفي النزعة السلفي المذهب[5]، والذي كان ينبذ الجهل وعقيدة التواكل، وأمثال الشيخ حسن الطويل من علماء التجديد، وفي نفس الوقت ضاق ذرعا من ترهات بعض المشايخ الجامدين أمثال الشيخ "عليش" [6].

وبعد تكوين الشيخ الأزهري و حصوله على العالمية من جامع الأزهر عام 1877 شغل عدة وظائف بدأها بالتدريس في جامع الأزهر، ثم نقل للتدريس بمدرسة دار العلوم في العام التالي 1878، ثم عمل مدرسا للّغة العربية بمدرسة الألسن، إلى جانب نشاطه الصحفي، فقد كان يكتب مقالات أدبية واجتماعية بجريدة الأهرام تؤكد ميله إلى العلوم العصرية والبحث في الأصول الدينية، ونتيجة نزعته النقدية المتأثرة بنهج السيد جمال الدين الأفغاني، فصل عن التدريس عام 1879 وهو العام الذي نفي فيه الأفغاني من مصر بعد أن نهل الشيخ عبده من معينه منذ أن وفد إلى مصر سنة 1871، حيث أعجب بحكمته وكياسته وفطنته وغزارة علمه، فلقنه الأفغاني الدروس الأولى في الدعوة والإصلاح، والجنوح إلى العقل في فهم أمور الدين، وقد كان لفكر الأفغاني بالغ الأثر في الحياة العلمية لعبده ومسيرته النضالية، [7]، وعندما غادر جمال الدين مصر اضطلع عبده بالدعوة والإصلاح والتغيير الهادئ [8]حيث عمل في العام التالي بجريدة الوقائع المصرية، ثم صار عضوا بمجلس إدارة الأزهر، وقد اشترك في الحزب الوطني، وأيد مطالب العرابيين، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر، نفي إلى لبنان[9].

لقد أبدى محمد عبده شجاعة أدبية في مواجهة العلماء التقليدين الأزهريين، من خلال نقد طرق التدريس القديمة ومحتوى المادة العلمية المدرسة من حيث التنويع، ومسايرتها للأوضاع التي كان يعيشها العالم الإسلامي بغية التغيير والتجديد، واجتثاث مسببات التخلف والجمود، وبالتالي خلق أوضاع ثقافية وفكرية وحضارية تكون قادرة على إخراج العالم الإسلامي من قوقعة التخلف، وكذا شجاعة سياسية في إبداء آرائه أمام الحكام والملوك أقطار العالم الإسلامي بما فيها مصر التي عايش ظروفها السياسية[10].وخلال سنوات المنفى دعاه السيد جمال الدين الأفغاني إلى باريس، فلبى دعوته، وهناك تم إصدار مجلة "العروة الوثقى" لسان حال جمعية العروة الوثقى السرية سنة 1884، غادر باريس إلى بيروت سنة 1885 وهناك تفرغ للتربية والتعليم والتجديد الديني، فأسس جمعية سرية للتقريب بين الديانات السماوية وكتب الفصول في الصحف والمجلات وأتم

ترجمته لرسالة الأفغاني " الرد على الدهريين " وهندس برامج إصلاح التعليم الإسلامي، ثم اشتغل بالتدريس ببيروت درس " بالمدرسة السلطانية " والمسجد العمري، وبعد عودته إلى مصر عين سنة 1899مفتيا للديار المصرية، وفي عام 1900 أسس جمعية إحياء العلوم الإسلامية، واستمر الأستاذ الإمام[11] محمد عبده في دعوته الإصلاحية إلى أن وافته المنية سنة 1905 وله من العمر سبع وخمسون سنة[12].

2- ملامح الفكر الإصلاحي التجديدي[13] للشيخ محمد عبده

من خلال ظروف عصر الشيخ محمد عبده وتكوينه العلمي؛ ارتسمت المعالم الكبرى للفكر الإصلاحي للشيخ:

أ- الشيخ محمد عبده وتجديد مناهج التعليم الإسلامية:

لقد لاحظ الشيخ محمد عبده في خضم مسيرته العلمية الابتدائية بالجامع الأحمدي، عقم أساليب التدريس فيه، ونفس الملاحظة في تكوينه الجامعي بالأزهر، ذلك أن التعليم فيه كان تقليديا يرتكز على حشو الأدمغة دون أن يتعلم الطالب طريقة التفكير؛ بسبب الاعتماد على المناهج القديمة، التي اقتصرت على الاجترار وشروح المتون القديمة وشرح الشروح، وغلق باب الاجتهاد والخوض في القضايا المستجدة المفيدة، من هذا المنطلق رسخت عقلية الجمود التي واجهت الحركة الإصلاحية الحديثة، والشيخ محمد عبده يصف لنا وضع التعليم من خلال حواره مع الشيخ البحتري عضو مجلس إدارة الأزهر الذي أخبر بأنه يتم تعليم الطلبة كما تعلم في الأزهر أي وفق المنهج القديم، فأخبره الشيخ محمد عبده بأنه يخشى ذلك أي التقليد وغلق باب الاجتهاد وعَقب عن مرحلة تكوينه بالأزهر قائلا: « إن كان لي حظ في العلم الصحيح الذي تذكر، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده له من النظافة »[14]. وفي ذات السياق يقول أحمد أمين «

... كان التعليم في عصر محمد عبده يقوم على الفلسفة اللفظية، ويعلم طالبه الدقة في الفهم الخاطئ والقدرة على الجدل ولكن لا يستخدم هذه الدقة لا في اللفظ ولا في الجدل، ولكن تجعل صاحبها غارقا في الاحتمالات بما يراه في الحواشي والشروح من التأويلات، فكل شيء يجوز حتى دخول الجملة في البندقية »[15].

لقد مكث الشيخ عبده في الأزهر خلال الفترة الواقعة بين 1865 و 1877 وكان يمقت دروسه ويتغيب ليحضر دروس الأفغاني، وكان عبده يكره الشيوخ المتزمتين لأن عقولهم لا تحاول الفكاك من قيود فرضتها عليهم عصور الجهل والاستبداد. وكان يعتز بعلمه وثقافته ولذلك حيكت له الدسائس وحاول الشيخ عليش وغيره تعجيزه في امتحان الشهادة العالمية، حيث قال: « ... عرضت نفسي على مجلس الامتحان في 13 جمادى الآخر سنة 1294 هـ، وأبليت في الامتحان أشد البلاء، ولتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني على الغيب إتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة، كانوا قد أجمعوا أمرهم على أن يمنحوني درجةً ما في العلم، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها، ولكن كان أمر الله أغلب، فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الأزهر، وأخذت أقرأ العلوم المنطقية والكلامية»[16].

لقد كان الشيخ محمد عبده رجلا ثائرا بحق، يسعى إلى تغيير أساليب وطرائق التعليم العقيمة، عن طريق إحداث ثورة علمية تكون تجلياتها بمثابة نهضة حضارية إسلامية، فعندما كان أستاذا في " كلية دار العلوم" تمرد على نظم التعليم فيها والتي كانت مناهجها منذ أمد طويل من دون تغيير، فرفض الشيخ أن يعلّم طلابه المواد التقليدية، ودرّس لهم كتبا في التاريخ، الذي يبث فيهم حس الثورة

والانقلاب وفكر التغيير وأساليبه والحكم والعبر والدروس المستخلصة من ذلك، ومن ذلك "تاريخ المدن الأوربية" للسياسي الفرنسي "جيرو" إضافة إلى "مقدمة" ابن خلدون؛ قاعدة الفكر الاجتماعي الحديث، ونتيجة لذلك تم طرده لأنه في نظرهم مستحدث مبتدع[17]

استهدف الشيخ محمد عبده إصلاح التعليم، ذلك أنه الحجر الأساس لكل تغيير ونهضة، والأمة الإسلامية أنذلك كانت تعيش في جهل، وأكثر من ذلك فقد كان التعليم يزيد الجهل ويعمّقه، ويعلم المسلمين التواكل والخمول والكسل والتحجر والجمود، بالاعتماد على تدريس العقائد المرتكزة على طقوس بلَّدت الطلبة وكبّلت عقولهم من خوض غمار الابتكار والإبداع، وبعض المواد التي تستمد مادتها العلمية من مصادر تجاوزها الزمن، وعليه فقد حاول الشيخ محمد عبده إحداث ثورة علمية من خلال التجديد في المناهج والفروع العلمية التي تجمع بين العلوم النقلية والعلوم الدنيوية النافعة، والاعتماد على المصادر والمراجع العلمية الحديثة.

ب – التقليد والقدرية والمعقول والمنقول في منهج محمد عبده الإصلاحي التجديدي:

لقد حارب الشيخ محمد عبده عقيدة الجبر والقدرية و"التحجج بالمكتوب"، يقول في ذلك « ... من مميزات الإنسان أن يكون مفكرا مختارا في عمله، على مقتضى إرادته، فوجوده الموهوب يستتبع هذه، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكا أو حيوان آخر ...»[18]، وأعطى الشيخ محمد عبده مفهوما جديدا –أو أحياه– للتخيير والتسيير وقضية " المكتوب" واعتبر أن الإنسان مخير في أفعاله فقد بين له الشرع الخير والشر وتركه حرا ليختار فإن اختار الشر فله جزاؤه، وإن

اختار الخير فله جزاؤه، وإنه على المؤمن أن يعمل ويقدم الأسباب ليرى النتائج، وقد عبّر عن ذلك قائلا ((.. الوجدان يشهد والحس يشهد أن الإنسان مختار في بعض أفعاله، كمن يقتل آخرا مثلا...)) [19]. فالمسلم مخيرٌ في أفعاله التي أمره الشارع بتقييدها وفق الشريعة الإسلامية السمحة، وعليه أن يتحمل مسؤولية نتائج أفعاله، وكلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، يقول الشيخ : ((فوجب على كل مسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء، على النحو الذي يعلمه وأن يقر بنسبة عمله إليه كما هو بديهي عنده، ويعمل بما أمره به، ويتجنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذي يجده من نفسه، وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه))[20].

وفيما يخص نظرة الشيخ عبده للعقل والنقل؛ يقول ((إن الإسلام يعتبر من موازين العقل البشري التي وضعها الله من شططه وتقلل من خبطه وخلطه))[21]. لذلك فالدين في نظر الشيخ محمد عبده يكمل العقل ولا قيمة ولا هداية لعقل من دون نقل، فيقول ((إن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم من دون المرشد الإلهي، كما يستقبل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لابد من السمع لإدراك المسموعات مثلا، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادة والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله، والإذعان لما تكشفه له من معتقدات وحدود أعمال كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل بها إلى معرفتها وأنها آتية من قبل الله، والإسلام يعتمد على العقل قبل كل شيء وقد رفع القرآن من شأن العقل و وضعه في مكان ينتهي إليه أمر السعادة، والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع))[22].

إن تعاليم الدين الإسلامي وشريعته السمحة تدعو العقل للتدبر في حقيقة الخلائق والكون، من خلال إدراك النظام المحكم الذي يسيره، والذي وجد منذ الأزل، ولم يعرف خللا ولا تعطلا فلا الشمس تأخرت يوما ولا النهار ولا الليل ولا الفصول الأربعة، بل هي تتعاقب في توقيت زمني دقيق، من هذا المنطلق وجب على الإنسان تسخير طاقاته العقلية لإدراك ومعرفة عظمة الخالق، وقد ورد ذلك في القران الكريم في أكثر من آية، قال الله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[23]، وقال تعالى ﴿ فَلينظر الإنسانُ إلى طعامه إنّا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم﴾[24] ومنه فإن الشريعة لم تكبّل العقل، بل دعته للنشاط والتدبر، يقول محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد: ((وإن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة واستنهضه للنظر في الخالق والتأمل في ما في الكون من آيات تدل على قوة الله وحكمته، وأن يتدبر فيها ليصل إلى معرفة الله)) [25].

لقد أعطى الشيخ محمد عبده مفهوما لطبيعة العلاقة بين العقل والنقل، وهي تتميز عنده بالتكامل فلا صواب مطلق للعقل من دون النص النقلي خصوصا فيما تعلق "بما وراء الطبيعة"، ولا يمكن أن يفهم النقل من دون العقل، وفي حالة التعارض يقول الشيخ ((اتفق أهل الملة إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقتان: طريقة التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في عمله والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل))[26].

ج – الإصلاح الاجتماعي والسياسي عند الشيخ محمد عبده:

لقد استهدف الشيخ عبده إصلاح المجتمع، ذلك أنه صلاح الأمة الإسلامية، فلا يمكن لمجتمع فاسد أن يخوض غمار النهضة والتغيير والثورة، ولتحقيق ذلك ركز الشيخ على إصلاح الفرد كونه يمثل جزءا من الكل، وصلاحه يعني صلاح المجتمع، وفساده يعني فساد المجتمع، وعليه يجب إصلاح الناشئة وتربيتهم تربية اجتماعية صالحة قادرة على إحداث التغيير الاجتماعي، عن طريق صنع فكر راقي لديهم، وتنقيته من كل الشوائب التي أصابت سابقيهم، وكل ذلك لن يتأتى إلا عن طريق خلق منظومة تعليمية عصرية متكاملة تستند إلى أساليب وطرائق علمية ناجعة.

وفيما يخص منهج محمد عبده في الإصلاح السياسي، فمن خلال تتبع سيرته النضالية، نجده قد خاض في السياسة، خاصة بعد لقائه بالشيخ جمال الدين الأفغاني الذي تأثر به أيما تَأثُر، ولكن فيما بعد اقتنع أن التغيير السياسي لن يتم إلا عن طريق التغيير الاجتماعي، ذلك أن أفراد المجتمع الواعي الصالح هم الذين يقع على كاهلهم مهمة التغيير السياسي، فلا يمكن لمجتمع يعيش أفراده كل مظاهر الجهل والتخلف والانحطاط أن يخوض غمار الثورة، لذلك فإنا نرى أن الشيخ محمد عبده سخر كل جهوده الإصلاحية النضالية من أجل صنع مجتمع واعي مثقف يعرف المهمة الخطيرة التي تنتظره، ولن يتم ذلك إلا عن طريق تربية الناشئة وإعداد الأجيال من أجل الثورة للتخلص من مظاهر الاستعباد المسلطة من طرف المستعمر الأوربي، ثم تحقيق الجامعة الإسلامية السياسية[27]. لقد كان لأسس الإصلاح المذكورة للشيخ عبده أثرا واضحا على الحركة الإصلاحية في المغرب العربي، بما فيه الجزائر التي نسج رجال الإصلاح فيها حزبا يدين بمبادئه للشيخ عبده.

3- الحزب" العبدوي " في الجزائر:

نتيجة تسرب فكر الشيخ محمد عبده إلى الجزائر، عبر منافذ عدة منها الحج والهجرة إلى بلاد المشرق وخاصة الصحافة، المتمثلة في جريدة العروة الوثقى ثم المنار، من هذا المنطلق فقد وجد الشيخ محمد عبده الأرض خصبة لاستقطاب أفكاره في الجزائر نتيجة الظروف الاستعمارية القاهرة التي كانت تعيشها، حيث تكونت قاعدة إصلاحية على المستوى الديني-العقدي والسياسي على نمط الشيخ عبده، إلى درجة تسميتها بالحزب العبدوي

لقد سمي أتباع الشيخ عبده بـ " العبدويون " لتميزهم بنوع من السخرية على أنهم على نهج الشيخ محمد عبده ورفقائه في ذلك " الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد رشيد رضا" وكرد على التيار المناقض للتجديد الديني للخروج بالأمة من غياهب الجهل، وصف أحد أعلام الإصلاح في الجزائر وهو عمر راسم جريدته " ذو الفقار " بأنها جريدة "عبدوية"[28] ليؤكد على تمركز نهج فكر الجامعة الإسلامية التجديدي في الجزائر، الذي مثله ثلة من أقطاب التجديد ذوي النزعة الإسلامية القائمة على الوحدة من أمثال عبد الحليم بن سماية[29]، والمولود بن موهوب[30]، وبلقاسم بن سديرة، والمكي بن عزو، وعبد القادر مجاوي[31].

لقد أشار عثمان أمين[32] في رسالته حول محمد عبده إلى وجود حزب إصلاحي كبير ينتمي إلى الشيخ محمد عبده في كتابه " رائد الفكر الإسلامي محمد عبده "، بقوله ((وكان للأستاذ الإمام أثرا ظاهرا في إفريقيا الشمالية بفضل مجلة المنار، وفي صيف 1903 أراد الأستاذ الإمام إبان عودته من أوروبا أن يقف بنفسه على أحوال المسلمين في شمال إفريقيا، فقام بجولة في تونس والجزائر، وقد اكتشف هناك كما قال كاتب مقال في جريدة "لوتان" وجود حزب إصلاحي كبير ينتمي إليه، ونذكر من أنصار تجديد الإمام عبده في الجزائر الشيخ محمد بن

خوجة وهو مؤلف كتب إسلامية عديدة، وكذلك نذكر الشيخ عبد الحليم بن سماية »[33].

من ناحية أخرى فقد كان للشيخ محمد عبده تيار مناقض لفكره التجديدي في الجزائر، خاصة ما تعلق منها بالعقيدة، نظرا لتجذر التفكير الديني الطرقي التقليدي نتيجة ظروف معينة، لذلك نجد الشيخ على بن عبد الرحمن مفتي وهران يراسل زميله الشيخ عبد الحليم بن سماية يستقصيه حول حقيقة منهج الشيخ عبده ومما جاء في كتابه: « ... قد كثرت علينا القلاقل في شأن ذلك الرجل الفرد الكامل الجليل الشيخ عبده الوارد لحضرتكم السعيدة ما بين قادح ومادح فمن قائل السيد من أهل الاجتهاد عالم بالمعقول والمنقول ذابا على الشريعة والدين سالك المحجة البيضاء. ومنهم من يقول أنه سني في فروع المعتزلة في الاعتقاد إلى غير هذا وتزاحمت علينا أقوالهم وتراكمت أهواؤهم وخادمكم بحمد الله لا تزحزحه عواطف الأقوال ولا تزلزله عن موقفه لواعج البطالين من غير بيان قصارى الأمر، تزاحمت القلاقل من غير ترجيح فالذي يقتضيه النظر الصحيح هو الوقوف حتى يتبين الحق من غيره...»[34].

لقد كان الفكر العقدي في الجزائر محافظا على تقاليده الدينية مرتكزة على أسس طرقية صوفية، لا ينبغي فيها للمسلم الاجتهاد وانتقاد هذه العقائد بل يجب التقليد والتقيد، الأمر الذي خلق ظاهرة الخمول والجمود وهو الوضع الذي انطلق منه الفكر الإصلاحي نحو التغيير، والخروج من دائرة التخلف بإعمال العقل و النقل والترجيح، والموازنة بينهما وبين علاج مكامن الخلل، خاصة ما تعلق منها بالأباطيل التي حالت دون تقدمهم وقد كان لسلطات الاحتلال الفرنسية فائدة من ذلك، كونها كانت تحارب كل مظاهر اليقظة، بما فيها نبذ القدرية و"المكتوب"، لذلك بعث الشيخ علي بن عبد الرحمن برسالة استفسار حول حقيقة منهج محمد عبده وتأثيره على السلوك الديني للفرد الجزائري، سلبا أو إيجابا خاصة في ظروف الاحتلال. وبعد أن تلقى الشيخ عبد الحليم بن سماية رسالة الشيخ علي، رد عليه في أخرى، يبين له فيها أهمية الفكر التجديدي لمحمد

عبده في مجتمع يتخبط في ظلام الجهل وسط ظروف استعمارية قاهرة ((مشرفنا الذي شرفنا بشموس أنواره ورياضه طبيب حياتنا الذي ننتعش باستنشاق أزهاره مولانا وسيدنا علي بن عبد الرحمن أمدنا الله من همته العالية ما يبلغنا إلى المراقب ويدفع عنا كل ما يلم من المصائب والحواجب، أزكى السلام ينافح الزهر في الكمام، ويكافل قطر الغمام... وقد انهالت على رحمة ونعمة بكتابكم الشريف الذي عمني أمسه ... ومما تضمنه كتابكم الرفيع استبداد رأيي فيما أعلم من فضيلة العلامة الذي شاع ذكره واشتهر أمره وأني عملا بالواجب على كل متدين من الذب عن أهل الله وإن لم يكن العلماء أولياء فليس لله ولي أصدع بما اطلعت عليه من خصائص الرجل في هذا الزمان الشبيه بزمان الفطرة فأقول هذا الرجل الجليل حنكته تجارب الزمان واستقصى أحوال الأمم حتى ميز منها ما شان وما زان، وتطلع من الفنون على اختلاف أنواعها ومواضعها...))[35]

لقد أثنى الشيخ رشيد رضا في تاريخ "الشيخ محمد عبده" على جماعة الحزب "الإصلاحي العبدوي" بقوله ((ومن خيار العلماء في الجزائر الشيخ محمد بن خوجة صاحب المصنفات، والشيخ عبد الحليم بن سماية، وقد عهد هؤلاء الفضلاء للشيخ محمد عبده أن يوصى صاحب المنار أن لا يذكر في مجلته دولة فرنسة بما يسوؤها لأن لا تمنع المنار من الجزائر، وقالوا له إننا نعده مدد لنا فإذا انقطع انقطعت الحياة عنا، وقد وجد الشيخ محمد عبده حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم، وإنما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار))[36]. وفي ذات السياق بعث بن سماية بقصيدة إلى الشيخ محمد عبده في القاهرة، فنشرها الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار وهي في خمسين بيت منها:

فأنت لنا شمس تنير على المدى أتى نورها مـــن غير أن نتطـــلعـــا

أدير بذكراك الذي منك قد مضى فأشرب كأسا بالصـــــفاء مشعشـــعا

يذكرنيك المجد والعلم والتقـــى فأنظـر من عليك عرشا مـرفـــعا

وتلوى إلى تلك المجالس فكرتـي فتترك قلـبي بالخيـــال ممتـــعا

محافل كان العلم فيها مجالـسي أسامـــر بدرا بالجـــلال تقنـــعا (37)

ومن علماء الجزائر، أيضا الذين نهلوا من معين فكر الشيخ عبده؛ الشيخ المصلح محمد بن مصطفى بن خوجة الذي كان يقرأ كتبه ويبث أفكارها التجديدية في أوساط الشعب الجزائري، ويطلع على مقالاته في "العروة الوثقى" ويذكر الشيخ محمد علي دبوز أن محمد بن خوجة كان من ملازمي الشيخ محمد عبده عند زيارته للجزائر وأعجب الشيخ عبده بعلمه وذكائه وجهاده في الإصلاح، فأثنى عليه الشيخ محمد رشيد رضا في " تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده " بقوله : ((... ومن خيار علماء الجزائر الشيخ محمد بن مصطفى بن خوجة صاحب المصنفات)) (38).

ولما طبع تفسير سورة العصر للشيخ محمد عبده، وهو جزء من الدرس الذي ألقاه أثناء تواجده بالجزائر، فرح بذلك الشيخ محمد بن مصطفى، ودرسه للناس عشرة مرات في مجالسه، وعلى إثر ذلك راسل الشيخ محمد الشيخ عبده بكتاب؛ جاء فيه ((وقد اطلعت في المنار الأنوار على تفسير سورة العصر بقلمكم البديع، فراقني أسلوبه الفائق العجيب، وأخذ مني منزعه العجيب، فالله أنتم ولله دركم أما بعد غوركم الصائب، وغوص ذهنكم الثاقب، في استنباط دقيق المسائل، وتقرير حقائق الفضائل ولشدة شغفي به قرأته على ملأ عظيم من العلماء والطلبة والأعيان عشر مرات في مجالس متفرقة فاستحسنوها جدا، واستجزلوا فوائده، وأبدوا من السرور ما لا مزيد عليه، وأثنوا على جانبكم السامي بما أنتم أهله، ودعوا لكم من صميم الفؤاد بسعادة الدارين)). كما برز الشيخ عبد القادر مجاوي الذي نَهج صراط الشيخ عبده في محاربة البدع وبذل أسباب الحضارة، فكان حربا على الخرافات التي انتشرت في المجتمع، وعلى أصحابها، وبين للناس أضرارها

وفتكها بهم، ليطهر عقولهم، وقد ألف في ذلك منظومة سماها " اللمع في إنكار البدع"[39].

لقد أدرك إخوان الشيخ عبد الحليم بن سماية في العقيدة الإصلاحية، أهمية إعمال الفكر التجديدي بالجزائر بالرغم من اضطراب المناخ العقدي لدى عامة الشعب، الذي تميز بانتشار تعاليم الطرقية، ذلك أن الشيخ عبد الحليم نفسه كان تجاني الطريقة ولكن، كان على سمَة لم يكن عليها غيره من الطرقيين وهي نبذ الدغمائية المغلقة[40]، لذلك بقي على طريقته ولكن أخذ من محمد عبده في قضية التجديد والاجتهاد على خلاف محمد بن خوجة " المضربة " الذي تخلى عن منهجه الصوفي نهائيا، من خلال ذلك فقد استحسن علماء الجزائر المسلمين فكره، بغية إحداث التغيير التدريجي، وذلك بتأليف العقول ذات العقائد التي تقدم الأسباب وتبذلها دون الخوض فيما يضر التغيير الهادئ فيتم إجهاضه من طرف سلطات الاحتلال أي عدم التطرق للقضايا السياسية إلى حين تكوين جيل قادر على ذلك وتحويل سبيل التغيير إلى سبيل أخر إذا اقتضت الضرورة، ولكن في البداية تجديد الثقافة خصوصا الدينية منها التي كانت تحول دون تقدم الشعوب الإسلامية.

لقد كان الشيخ محمد عبده متطلعا على أحوال الجزائر ويعرف مواضع الخلل، قبل مجيئه إليها من خلال اتصاله بقطب المقاومة الجزائرية المخضرم الأمير عبد القادر، وابنه محي الدين في بيروت ودمشق، ولعل الشيخ محمد عبده قد تحادث مع الأمير وأبنائه حول أحوال الشرق والجامعة الإسلامية وجمعية العروة الوثقى التي كان الأمير عضوا فيها، كونهم من رواد الإصلاح في ذلك الوقت وأن مسؤولياتهم في أمتهم تلح عليهم بالدرجة الأولى التحادث حول أحوال الأمم الإسلامية في الشرق والغرب، وسبل وطرائق إخراجها من دائرة التخلف والهيمنة وقد كانت بينهم علاقة خاصة من خلال المراسلات المتبادلة، حيث ذكر الشيخ محمد رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده كتب عددا من الرسائل إلى الأمير، وأن مخاطبته له قد كثرت فكانت طورا في رسائل الإصلاح وطورا في رسائل الوداد،

ويشير الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلى وجود أسرار بينهما يرمز إليها الشيخ برموز كقوله ((ورجائي ألا يزال فكرك ما تفارقنا عليه وسبق الكلام فيه مرارا ... وأن يرد لي من سيادتك ما يبشرني بسلامة حالك، ومجمل الحاصل من سعيك))[41]. وعلى اثر وفاة الأمير كتب الشيخ محمد عبده كتابا لولديه، معزيا لهم "محمد ومحيي الدين"، بعبارات مؤثرة، تدل على مكانته عنده: ((وليس من كلمة أجمع من كلماته ولا قول أوفى بفضائله سوى أنه منتهى وصف الواصفين وغاية مدح المادحين))[42].

وكان الشيخ عبده قد زار تونس سنة 1885[43]،.وفرنسا عندئذ حديثة العهد باحتلالها، وقد احتك الشيخ ببعض الجزائريين، الذين كانوا طلبة في جامع الزيتونة، أو عمالا في الإدارة أو في الصحافة، وعرف منهم أوضاع الجزائر في ظل الاحتلال، ولعل ذلك ساهم في رسم صورة عن الجزائر المحتلة وظروفها، ومما جعله ينتقل في زيارة ميدانية بنفسه ليرى عن كثب، وهذا ما أشار إليه محمد رشيد رضا في أن هدف الشيخ محمد عبده كان الإطلاع بنفسه على أحوال المسلمين وتتبع أثار الإسلام[44]، وتمهيدا لذلك قام صاحب المنار رشيد رضا بنشر مقال عنونه بـ "فرنسا والجزائر"، لاسترضاء السلطات الفرنسية وتقديم النصح الذي يرسم سياسة اللين مع مستعمرات الفرنسية، جاء فيها ((كنا كتبنا مقالة عنوانها (فرنسا والإسلام) نصحنا فيها هذه الدولة العظيمة بأن تعامل مسلمي مستعمراتها بالحسنى لتملك قلوبهم وتأمن غائلتهم ونحن نعلم أن فرنسا لم تكن مرتاحة إلى تلك المعاملة القاسية التي كانت تعامل بها مسلمي الجزائر ولكنها كانت ترى أنها الطريقة المتعينة وأنه يجوز أن يظهر لها خير منها. وفي هذه الأيام قد زار الجزائر رئيس الجمهورية وبشر الأهليين بأن هذه الزيارة مبدأ معاملة جديدة مرضية وبالغ في استمالة القلوب وطلب الإتلاف ولولا العزم على حسن الفعل لما صدر عنه هذا القول، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان))[45].

4- تبلور الفكر الإصلاحي-التجديدي العبدوي؛ للحركة الوطنية الجزائرية:

لقد تبلور الفكر الإصلاحي–التجديدي بشكل جليٍ وظاهرٍ منذ أن حل الشيخ عبده بالجزائر سنة 1903 فقد خطط الشيخ لزيارة الجزائر للوقوف على مكامن الضعف، ومواضع مسببات التخلف الفكري. وقد أخفى الشيخ أمره في سرية تامة، لكي لا يعلم خصومه فيعملون على إحباط مشروعه في زيارة الجزائر ((لئلا يبادر الأشرار إلى بث الدسائس لمنع فرنسة إياه من دخول البلاد)) ومع ذلك فقد تسرب الخبر وبادر معارضوه في المنهج والتفكير إلى كتابة رسالتين إلى الحكومة العامة في الجزائر وشاية بالشيخ عبده؛ واحدة من القاهرة والأخرى من الإسكندرية، وكلتاهما تحذر الحاكم العام الفرنسي في الجزائر "شارل جونار" (كان على هامش يسيرٍ من الاعتدال)[46] من الشيخ محمد عبده على أن الهدف من سفره إلى الجزائر هو تحريض المسلمين على الثورة والخروج على السلطة المركزية الفرنسية في الجزائر ونبذ طاعتها وأنه له من القدرات، والثقل الروحي على المسلمين ما تجعله قادرا على إحداث ذلك[47].

زار الشيخ محمد عبده الجزائر سنة 1903 ومكث فيها حوالي عشرة أيام، وتنقل في خضمها بين مختلف أرجاء العاصمة، والشرق الجزائري (قسنطينة) وتعتبر زيارته؛ محطة مهمة في تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية، ذلك أن جل الدارسين لها والباحثين فيها؛ يصنفونها على أنها من العوامل الرئيسية لتنشيط وتأسيس القاعدة الإصلاحية ذات الأبعاد التجديدية عل مستوى العقدي والفكر الديني، والنهج السياسي في التعامل مع سلطات المحتل الفرنسي [48]، وأثناء الزيارة احتك بعلماء الجزائر المسلمين من المصلحين، والذين شكلوا تيار "المحافظية" حيث أثر عليهم الشيخ عبده بفكره، بالرغم من التوجهات العقدية المختلفة، فمنهم من تخلى عن مرتكزاته العقدية الطرقية كمحمد بن خوجة الذي كان تيجاني الطريقة، ومنهم من أخذ عنه عنصر التجديد والانفتاح كالشيخ عبد الحليم بن سماية بغية مواجهة التحديات، وتبني منظومة عقدية، تنبذ التقليد والخمول، وتحث على الاجتهاد وبذل أسبابه الحضارية، بغية تكوين القاعدة الفكرية للتغيير الهادئ، ويظهر ذلك التجانس والتفاهم الفكري، من خلال

الرسالة التي بعث بها الشيخ محمد عبده لعبد الحليم بن سماية: ((حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم بن سماية، لا يزال يؤنسني مثال علمك وفضلك، ويعجبني رفيق رقيق من كمالك ونبلك، وما كان ذلك ليفارقني بعد أن صار بضعة مني، ولو كشف لي من نفسك ما كشف لي منها لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمة العقل والأدب، ولعرفت أنك ستكون إمام قومك، تهديهم — إن شاء الله– سبل الرشاد، وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين : حظ المعاش، وحظ المعاد، وهذا هو أملي الذي أسأل الله تحقيقه، فخذ من الوسائل ما يبلغك فضل الله غاية ما يرمي إليه استعدادك))[49].

وقد أشار الشيخ محمد رشيد رضا دور محمد عبده من خلال زيارته العلمية ذات الأبعاد النهضوية التجديدية من خلال ثلاث نقاط هي : الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية، من طرقهما القريبة، والجد في الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة والحث على العمل وعمران البلاد، و مسألة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة[50]. يبدو أن أبرز معالم سياسة التغيير لدى الشيخ محمد عبده، ترتكز على نبذ الفكر التقليدي الطرقي– القدري، وترك السياسة وعدم الاشتغال بها إلى أجل مسمى، وقد شرح الشيخ محمد رشيد رضا معنى ترك الاشتغال بالسياسة، على أنه لا يعني عدم مخاطبة الحكومة في المظالم التي تضر بهم كالقوانين الجائرة والمعاملات التعسفية. وشعاره في ذلك " فإذا لم تكشف الحكومة ظلامتهم، بعد الالتجاء إليها في كشفها، فإنهم، يكونون معذورين في سخطهم عليها وتربصهم بها الدوائر كالعصيان" [51].

وخدمة لهذه السياسة المرنة، قام الشيخ محمد عبده بشرح سورة العصر، في جامع "السيد الأكحل بالحامة" وكان عدد الحاضرين حوالي مأتي شخص، من مختلف أنحاء الجزائر، ومن مختلف الفئات العمرية؛ دام الدرس حوالي ساعتين، ولا شك أن اختيار سورة العصر لم يكن اعتباطا ولا بالصدفة، لما لها من أبعاد ترصي الذهنية العقدية القائمة على التكيف على حسب الظروف، والتخطيط بناءً على التنظير لمرحلة لاحقة، وتكوين القاعدة العلمية الفكرية، القائمة على الإيمان

والعمل الصالح، والصبر، ذلك أن تعاليم الشريعة الإسلامية تربط الاستخلاف والتمكين في الأرض، بالإيمان و العمل الصالح، والصبر، فإذ توفرت هذه القيم العقدية في الفرد المسلم–الجزائري، لا يمكن للمستعمر الفرنسي أن يجد موطئ قدم له في الجزائر.

لقد ساهمت زيارة محمد عبده في إرساء دعائم الإصلاح في الجزائر، من خلال بث عنصر التجديد والإقلاع عن التقليد المقيت، والخمول، ونبذ الطرقية التقليدية التي وفرت بعضها المناخ المناسب لبسط هيمنة المحتل على البلاد والعباد وبذل أسباب النهضة، بالارتكاز على عقائد تلونت بالخرافة والاستغاثة بالموتى من أجل تحقيق التفوق وجل المصالح، وترك الأسباب الحقيقية الفعلية والواقعية للنهوض بالأمة الجزائرية التي سُلبت منها سيادتها وحريتها،

وقد ظهرت تجليّات العلاقة التأْثِيرِيَة–التَأَثُرِية بين الفكر الإصلاحي التجديدي للشيخ عبده، والرعيل الإصلاحي الأول في ميلاد حركة الأمير خالد[52] الإصلاحية ذات الأبعاد الإسلامية والسياسة المرنة، ثم وبشكل ظاهر تأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي شكلها ثلة من الرجال الذين اعتنقوا الفكر العبدوي واقتنعوا بمبدأ التجديد والإصلاح للنهوض بالأمة الجزائرية لتخوض غمار الثورة الفكرية من أجل التحضير لمسببات الحرية، فهذا الشيخ عبد الحميد بن باديس يشير بلغة صريحة إلى النهج العبدوي للجمعية، بالرغم من تهكم خصومها بها على أن شيوخها " عبداويون! " في مقال له في مجلة السنة بعنوان " عبداويون ثم وهابيون" ومما جاء فيه ((لما قمنا بهذا وأعلناه [أي منهج محمد عبده في الإصلاح الديني] قامت علينا الدنيا ومن وافقنا قيامة أهل الجمود والركود وصاروا يدعوننا للتنفير والحط منا عبداويين ...))[53]. لقد أشار الشيخ عبد الحميد إلى الحركة الوهابية التي تعتبر من أبرز التيارات الإصلاحية التجديدية الحجازية المتأثرة بفكر الشيخ عبده على المستوى الديني– العقدي التي سار على نهجها رواد جمعية العلماء المسلمين، (ولا يزال أتباعها إلى غاية يومنا "الوهابية") هذا ما أكده الأستاذ الزاهري العضو الإداري لجمعية العلماء المسلمين في مقال

له في مجلة الصراط بعنوان " الوهابيون سنيون حنابلة " أوضح فيه سلامة المنهج العقدي والمنظومة الإصلاحية لهذه الطائفة[54]. من خلال مبادئ الشيخ عبده فقد نهضت الجمعية بمهمة التجديد الديني بتنقيته من البدع والأباطيل والقدرية والمكتوب، التي كانت تعمل عمل المسكن المهدئ للأهالي الجزائريين الذين كانوا يعيشون " زمن النية " ويعتقدون بالقدرات الخارقة للأولياء؛ منقذوهم ومخلصوهم من السيطرة الفرنسية. وكذا نبذ تقييد العقل وتكبيله، وجعل الشريعة مرنة تتكيف حسب الظروف المستجدة والمعاصرة؛ يشير إلى ذلك الشيخ بلقاسم الزغداني في مجلة الشريعة النبوية المحمدية بقوله: ((فلكل مقام مقال ولكل زمان عقلية وأسلوب ولكل سنة تحول في العمل وتجدد في الفكر، فننتقل من قيل وقال....)) [55]. وفي ذات السياق يقول شيخ المصلحين محمد البشير الإبراهيمي ((إن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح هي صيحة إمام المصلحين الشيخ محمد عبده، وجاهر بدعوة المسلمين في المشرق والمغرب إلى الرجوع للدين الصحيح، والتماس الهداية من القرآن والسنة، وأن لا فلاح لهم في دنياهم وأخراهم، إلا بالعودة إلى تلك المنابع الصافية ... إن تلك الصيحة كانت صرخة في آذان المتربصين بالإسلام، ولآذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات، وللعلماء الجامدين أيضا، لذلك كذبوه وعارضوه وقاوموا حركته... وحمل لواء الإصلاح بعده تلميذه و وارث علومه السيد محمد رشيد رضا))[56].

الهوامـــش

(**1**) رأفت الشيخ : **تاريخ العرب الحديث** ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر ، 1994 ، ص 280.

(**2**) صلاح زكي أحمد : **أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث** ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، مصر ، (د.ت) ، ص 64.

(**3**) رأفت الشيخ : **مرجع سابق** ، ص 280.

(**4**) محمد عمارة : **تيارات الفكر الإسلامي** ، ط2 ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، 1997 ، ص 293.

(**5**) من خصائص المذهب السلفي أنه ينبذ البدع والخرافات، وقد ظهر هذا التيار الفكري الإسلامي نتيجة الأوضاع الدينية والفكرية والحضارية التي كان يعيشها العالم الإسلامي، والتي تميزت بتفشي الجهل وكل مظاهر الشرك، لذلك فهو تيار موجه بالأساس لمحاربة الطرق الصوفية المنحرفة التي امتهنت الشعوذة ونشرت فكر التواكل والشرك في أوساط المجتمعات الإسلامية عبر جل أصقاع العالم الإسلامي بما فيها المغرب العربي الذي عششت فيه الطرق الصوفية.

(**6**) رأفت الشيخ : **مرجع سابق** ، ص 280.

(**7**) كما كان لشيخه في الأزهر حسن الطويل الأزهري أثر بالغ كذلك في صنع شخصية محمد عبده العلمية، فقد علمه الشجاعة في إبداء الرأي والجرأة والصراحة في التعبير عن النفس مع أصحاب المناصب والمقامات، والزهد في الحياة الدنيا. انظر: صلاح زكي أحمد : **مرجع سابق** ، ص 64 ، 65.

(**8**) رأفت الشيخ : **مرجع سابق** ، ص **281**.

(**9**) رأفت الشيخ : **نفسه** ، ص **282**.

(**10**) كانت نفس محمد عبده تفور بالغضب على ما يجري في بلاده من الأمور السياسية، ففي هذه الفترة أنشئ صندوق الدَّيْن والمراقبة الثنائية الإنجليزية–الفرنسية على مالية مصر، ورأى بعينه، كيف يتوغل الحكم الأجنبي في بلاده، مقوضا سلطتها، مبددا هيبتها فانخرط في النشاط السياسي المناوئ لاستبداد الخديوي إسماعيل بالسلطة، والتدخل الأجنبي، ذلك النشاط الذي استخدم فيه " التنظيم الفكري والسياسي " من مثل " الحزب الوطني الحر " الذي أسسه السيد جمال الدين الأفغاني، وبدأ عمله سريا، ورفع شعار" مصر للمصريين " وهو الحزب الذي ضم أغلب القيادات التي أسهمت في تفجير الثورة العرابية سنة 1881م. أنظر : صلاح زكي أحمد : **مرجع سابق** ، ص 65.

(**11**) يرجع السبب في تسمية الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام إلى أن دعوته الإصلاحية التجديدية قامت على أمور ثلاثة هي :

- تحرير الفكر من قيد التقليد لا يخضع لسلطان غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان.
- اعتبار الدين صديقا للعلم لا موضعا لتصادمهما، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها، وهما حاجتان من حاجات البشر لا تغني إحداهما عن الأخرى.
- فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

(**12**) أورد شكيب أرسلان سيرة مختصرة للشيخ محمد عبده وهي شهادة عن مؤهلات الشيخ العلمية. انظر: لوثورب ستودارد : **حاضر العام الإسلامي** ، تعريب : عجاج نويهض ، تعليق : شكيب أرسلان ، ج1 ، دار الفكر للطباعة وللنشر والتوزيع ، (د.ت) ، ص 283.

(**13**) المقصود بالتجديد هو مسايرة التطور الحاصل على مستوى الفكر الإنساني في كافة الميادين، غير أنه يأخذ بعدا أخرا بخصوص العقيدة والاعتقاد وهو الإحياء وبعث الأسس العقدية الصحيحة.

(**14**) محمد عبده : **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده** ، تحقيق وتقديم: محمد عمارة ، ج3 ، ط1 ، دار الشروق ، القاهؤرة ، مصر ، 1993 ، ص 194.

(**15**) من خلال تصريح الشيخ محمد عبده يظهر لنا مدى احتقاره لطريقة التعليم في الأزهر، وعلمائه المتزمتين المحافظين، و وصفها بأنها كانت في أغلبها جامدة وعقيمة ومحصورة في المختصرات لا تهم وشروح وحواش وتقارير كما أنها لم تكن تصل في أغلبها بالحياة اليومية إلا في إطار العبادات، فضلا عن أن أغلب مشايخ الأزهر لا يشعرون بما أصاب الإسلام والمسلمين من تدهور، وانحصرت

أهميتهم على أنسفهم. أحمد أمين : **زعماء الإصلاح** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر ، 1971 ، ص311.

(**16**) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده** ، ج1 ، ط2 ، دار الفضلية ، القاهرة ، مصر ، 2006 ص 103.

(**17**) صلاح أحمد زكي : **مرجع سابق** ، ص 65.

(**18**) محمد طهاري : **مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده** ، ط2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1992، ص 128،129 .

(**19**) أنظر: محمد رشيد رضا : ، **مصدر سابق** ، ج2 ، ص267.

(**20**) مسألة القدرية و" المكتوب" والتي جعل منها المسلمون حجة دامغة قائمة على أسس عقدية، ليبرروا تخلفهم واستعبادهم، وأن كل ما أصابهم ويصيبهم هم مكتوب من عند الله، ولا يد لهم في ذلك، فالتخلف والاستعمار مقدر، إن شاء الله دفعه عنهم وإن شاء جعلهم امة متماسكة راقية، لذلك وجب الصبر والقنوع والرضا بقضاء الله وقدره، من هذا المنطلق سعا الشيخ لتبيان حقيقة المكتوب والقدر، وأن الله قد خير عباده في أفعالهم، ولم يمنعهم من تقديم الأسباب للحصول على أهدافهم المرجوة، فالحرية مرهونة بنهضة الشعوب لتخليص بلادها من براثن الاستعمار، والتقدم والرقي والازدهار مرهون ببذل أسباب الحضارة ونشر العلم الصحيح، وإطلاق العنان للعقل الإسلامي ليبدع ويخترع. للاستزاد حول منهج الشيخ من خلال مقالاته؛ أنظر: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده : **العروة الوثقى** ، إعداد وتقديم : سيد هادي خسرو شاهي ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2002.

(**21**) محمد طهاري : **مرجع سابق** ، ص 22.

(**22**) للاستزادة حول الموضوع؛ انظر : محمد عبده : **رسالة التوحيد** ، تحقيق محمد عمارة ، دار الشروق ، بيروت – لبنان ، القاهرة – مصر ، دار الفكر الإسلامي ، 1994.

(**23**) سورة الغاشية، الآية 17-20.

(**24**) سورة عبس، الآية 24-32.

(**25**) أنظر : محمد طهاري : **مرجع سابق** ، ص 23 ؛ كذلك محمد عبده : **رسالة التوحيد** ، مصدر سابق ، 20.

(**26**) محمد طهاري : **مرجع سابق** ، ص 23

(**27**) انظر: محمد رشيد رضا: " الشيخ محمد عبده والجامعة الإسلامية " ، مجلة المنار ، ج2 ، مج15 ، صفر 1330/ فيفري 1912 ، القاهرة ، ص133.

(**28**) محمد الهادي الحسني : **نجوم ورجوم** ، الشروق للإعلام والنشر ، الجزائر ، 2012 ، ص 176.

(**29**) هو الشيخ عبد الحليم بن علي بن سماية ولد سنة 1866 في قلب مدينة عبد العزيز الثعالبي بالجزائر العاصمة، حفظ القرآن الكريم ومختلف المتون، ثم تدرج في العلوم فنبغ اللغة العربية والأدب والفقه والتفسير تولى التدريس في المدرسة الحكومية، درس في المدرسة الثعالبية كان من أشد الناقمين على الاستعمار الفرنسي عمل صحفيا في عدد من الصحف الجزائرية والتونسية له عدة كتب في الفقه والفلسفة والتصوف لكنها كلها مفقودة، أصيب بالجنون في أخر أيامه حيث جعل له فرسا أبيضا وسيفا وعمامة وعين نفسه باشا الجزائر أي حاكما عثمانيا وتوفي سنة **1933** . انظر: جيلالي صاري : **بروز النخبة المثقفة الجزائرية** ، (**1850-1950**) ، ترجمة : عمر المعراجي ، الوكالة الوطنية للنشر و الإشهار ، الجزائر 2007 ، ص 45-65.

(**30**) مولود بن محمد السعيد بن الشيخ المدني، ولد في 1863 بقسنطينة، وشأنه شأن العلماء فقد حفظ القرآن الكريم، وتدرج في العلم، صاحب الشيخ المجاوي، درس في الكتانية، وفي الجامع الكبير بقسنطينة وكان مفتي المدينة، وعضو

في مجلس الصداقة الإسلامي، وعضوا في جمعية الصالح باي الثقافية، له العديد من المؤلفات نذكر منها: نظم مقدمة ابن آجروم، مختصر الكافي في العروض والقوافي، توفي 1930.انظر: محمد على دبوز : **نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة** ، ج1 ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، 2007 ، ص 135-143.

(**31**) هو الشيخ عبد القادر بن أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المجاوي، نسبة إلى مجاوة. ولد في تلمسان في سنة 1848، درس في تطوان المرحلة الابتدائية والثانوية ثم درس بجامعة القرويين، انتقل إلى قسنطينة بذل جهودا في التربية والتعليم، ثم انتقل إلى العاصمة، من مؤلفاته: منظومة اللمع في إنكار البدع، إرشاد المتعلمين في مبادئ العلوم، نصيحة المريدين، الدرر النحوية نزهة الطرف في المعاني والصرف، وله كذلك جملة من المقالات في الصحف الجزائرية العربية.، توفي سنة 1913. أنظر: جيلالي صاري: **مرجع سابق** ، ص 29 -43

(**32**) ممن أهم أساتذة قسم الفلسفة بجامعة القاهرة ومفكريه، وصاحب الجوّانية، تحصل على الليسانس من جامعة القاهرة سنة 1930 ودرس على يد شيخ الأزهر مصطفى عبد الرزاق تلميذ الشيخ محمد عبده، سافر إلى باريس في بعثة دراسية أرسلتها كلية الآداب لدراسة الدكتوراه بجامعة السربون حيث نال شهادة الدكتوراه حول الشيخ محمد عبده " رائد الفكر الإسلامي محمد عبده "

(**33**) المهدي البوعبدلي : " جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده للجزائر عام 1903 / 1322 " ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، العدد 54-55 ، السنة السابعة ربيع الأول – ربيع الثاني / فيفري – مارس 1978 ، ص 77 ، 78.

(**34**) المهدي البوعبدلي : **مقال نفسه** ، ص 78.

(**35**) المهدي البوعبدلي : **نفسه** ، ص 79.

(**36**) أنظر: محمد رشيد رضا: **مصدر سابق** ، ج1 ، ص 781.

(**37**) محمد على دبوز : **مصدر سابق** ، ج1 ، ص 125.

(**38**) محمد على دبوز : **نفسه** ، ص 128- 129.

(**39**) **نفسه** ، ص 90.

(**40**) لقد كان قطب الإصلاح الشيخ عبد الحليم بن سماية أول من درس "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده.

(**41**) لقد كان الأمير عبد القادر، ينتهج نهج الصوفية على الطريقة القادرية، وكذلك بدأت مسيرة الشيخ محمد عبده حيث كان صوفي المنهج، ولكن بعد اطلاعه على حقيقة ما يحدث في العالم، وقصور مشاربهم الصوفية على مجارات مخلف التحديات التي يواجها العالم الإسلامي، لعله تحدث معه فيما يخص بعض مبادئ الصوفية، وتغييرها من منطق المناقشة، لما يخدم الدين والعباد.

(**42**) أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ج5 ، ط6 ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 ، ص 583 ، 584.

(**43**) لقد زار الشيخ محمد عبده الأولى لتونس زيارتها لأولى سنة 1884، التقى برواد الإصلاح المتأثرين بفكره وفكر أستاذه جمال الدين الأفغاني أمثال الشيخ محمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي، وسالم بوحاجب؛ و شرح لهم أهداف ومبادئ جمعية العروة الوثقى فأقبل عليها رواد الإصلاح وأعجبوا بأهدافها، فكتب السيخ محمد عبده إلى جمال الدين الأفغاني رسالة يوضح له فيها عزمه على تأسيس شعبة للجمعية في تونس بعد أن وجد المناخ المناسب ((لقد استقبلني علماء تونس وأمراؤها استقبالا حسنا، وتعرفت عليهم جميعا، كما أنهم يعرفونكم وقلت لهم: إن العروة ليست اسم جريدة، بل هي جمعية كان قد أسسها السيد جمال الدين بحيدر أباد بالهند، كما أنّ لها شعبا أخرى في بلاد مختلفة، ولكن كل شعبة لا تعرف الأخرى ورئيس كل شعبة هو المعروف فقط، وأني أرغب في أن أكون شعبة هنا، وحين عرضت عليهم الفكرة سروا بها وأنا اليوم مجدّ لتكوين هذه الشعبة ...استقبلت هذه الدعوة بحرارة كبيرة وخصصتُ كامل وقتي من أجل

وضع أسسها وقد رأينا أن نُطلق على خلية تونس اسمك الأفغاني وإني على يقين من أنها سوف تتطور، ذلك أن التونسيين لهم رغبة واضحة في هذا العمل السري وفي حمايته والدفاع عنه". انظر: محمد الصادق بسيس: **محمد السنوسي حياته وآثاره** ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1976، ص 53

(**44**) يذهب البعض إلى أن زيارة الشيخ محمد عبده كانت من إيعاز فرنسي، في إطار التوازنات السياسية مع بريطانيا، في إطار كسب الشخصيات ذات الثقل الروحي على العالم الإسلامي واستخدامهم كأدوات، لتسهيل السيطرة على أقطاره، من ذلك أنه جذب إلى فرنسا وعاش هناك ونهل من نهج رواد الفكر الانفتاحي هناك ، لذلك سهلت له فرنسا عملية انتقاله للجزائر، ومنحت له رخصة الدخول، ولكن نرى أن الشيخ محمد عبده كان يستغل فرنسا وفرنسا تستغله، ذلك أن السلطات الفرنسية كلفت الشيخ أبو القاسم الحفناوي –كان محرر جريدة المبشر الصادرة عن الحكومة العامة – أن يصطحبه من مرسيليا، وعند وصوله إلى الجزائر تركه الحفناوي، وتولاه آخرون، كانوا يلازمونه، ويتبعون خطواته ونظراته، ويكتبون التقارير المفصلة عن تحركاته، وهذا يدل على أن فرنسا لم تكن تثق في تصرفات محمد عبده ومن الممكن أن يحدث لها القلاقل في الجزائر، لذلك وضعت ترسانة من المخبرين لتكون على أهبة الاستعداد لتوقيف الشيخ، وكان هدفها أن توظف ثقل الشيخ الروحي على العالم الإسلامي لتموه الرأي العام الجزائري أنها تحترم شيوخ الإسلام، على أن منهج الشيخ يتجنب الخوض في القضايا السياسية، في ذات الوقت كان الشيخ يهدف إلى استغلال تساهل فرنسا واحترامها له وأن يقوم ببث منهجه الإصلاحي القائم على التجديد الديني، ونبذ الطرقية التقليدية، ليعد القاعد الإصلاحية داخل المجتمع الثقافي الجزائري، نظرا لتجذر البدع والأباطيل، وبالفعل فقد حمل لواء الإصلاح والتجديد ثلة من رجال الجزائر كالشيخ عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي وغيرهم.

(**45**) مجلة المنار ، مج6 ، ج3 ، ماي 1903 ، ص 79.

(**46**) شارل جونار (1857-1927) شخصية سياسية فرنسية عين حاكما عاما على الجزائر مرات عديدة الأولى ما بين 1901/1900 و الثانية ما بين 1903-1911 و الثالثة بعد الحرب العالمية الأولى ما بين 1921/1918، وضع حجر الأساس لجامعة الجزائر سنة 1909، كما أصدر قانون 1919 الخاص بتوسيع دائرة النواب المسلمين في المجالس المحلية ،كما اتبع سياسة تعسفية طاغية بإصداره منشورات جونار و إنشائه المحاكم الرادعة. وفي ذات السياق فقد كان تعيين جونار على رأس الإدارة الفرنسية دور إيجابي السياسية الفرنسية ولو بشيء القليل حيث عين على رأس الولاية العامة للجزائر أول مرة سنة 1900، كان من الدعاة المؤمنين بأن سياسة الإدماج التي أتبعت تجاه (الأهالي) إلى حد الآن كان مآلها الفشل بسبب المقاومة الشديدة التي أظهروها حفاظا على مقوماتهم الوطنية الإسلامية و يعتبر جونار الشخصية الفرنسية الوحيدة التي استطاعت أن تعطي لنفسها وجها من السياسة المرنة المعروفة بتعاطفها مع الاتجاه العربي الإسلامي في الجزائر. أنظر : ، إبراهيم مياسي : "إرهاصات الحركة الوطنية الجزائرية 1914/1900" ، مجلة المصادر ، العدد 06 ، 2002 ، المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ص 133. 134، ص 133، 134. وانظر : صالح خرفي : " مدخل إلى دراسة الأدب الجزائري الحديث " ، مجلة الثقافة ، العدد21 . السنة الرابعة (جوان – جويلية) ، الجزائر ، **1974** ، ص06.

(**47**) ذلك أن الشيخ محمد عبده يعد من أعلام وأقطاب الجامعة الإسلامية الذين نظروا وهندسوا مشروعها الخطير على السياسية الفرنسية في مستعمراتها، ومنه فقد شكل ثقلا إصلاحيا في الشرق وفي كل أقطار العالم الإسلامي في المعمورة.

(**48**) مكث الشيخ في الجزائر العاصمة وقد حاول التنقل إلى الغرب الجزائري، وكل حال دون ذلك ظروف معينة، ثم انتقل إلى قسنطينة والتقى هناك بعلمائها،

واحتك بهم في وحثهم على العلم وتكوين العقول، على حد منهجه، أنظر : أحمد صاري : " الجديد عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر قسنطينة" ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد2 ، مارس 2003 ، ص 16.

(**49**) محمد الهادي الحسني : **مرجع سابق** ، ص 180.

(**50**) المهدي البوعبدلي: **مقال سابق** ، ص 77.

(**51**) أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ج5 ، مرجع سابق ، ص 589.

(**52**) ولد الأمير خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر بمدينة دمشق بسوريا فيه 20 فيفري 1875م و بها تربى و حفظ القرآن الكريم ، انتقل مع والده إلى الجزائر و بها تابع دراسته الابتدائية و منها التحق بباريس و حصل بها على شهادة بكالوريا علوم ، التحق بالمدرسة العسكرية سان سير عام 1892 دون رغبة منه ففرضت عليه الإقامة الجبرية مع عائلته في بوسعادة ، جند في الحرب العالمية الأولى و أعفي منها سنة 1915 ثم تقاعد سنة 1919 ساهم في ميلاد النهضة الوطنية، نفي سنة 1923 إلى سوريا و بها توفي سنة 1936. من خلال سيرة الأمير خالد يتضح لنا نزعته الإسلامية، كونه من أصل شريفي من نسل الأمير عبد القادر بن محي الدين الحسني، وكان يدعوا إلى تحقيق مبادئ الجامعة الإسلامية ولكن بطريقه غير مباشرة ليتجنب المواجه الخاسرة مع السلطات الفرنسية، كون مسرح الدعوة يتحكم فيه الاحتلال. انظر: عمار بوحوش: **تاريخ الجزائر السياسي، من البداية ولغاية 1962** ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ص 219 وما بعدها.

(**53**) عبد الحميد بن باديس: " عبداوييون ثم وهابيون" ، مجلة السنة ، السنة الأولى ، العدد:3 ، الاثنين 29 ذي الحجة 1351/ 24 أفريل 1933 ، قسنطينة ، الجزائر ، ص 1.

(**54**) الأستاذ الزاهري: " وهابيون سنيون حنابلة " ، مجلة الصراط ، السنة الأولى ، العدد: 5 ، الاثنين 26 جمادي الثانية 1352هـ/ 16 أكتوبر 1933 ، قسنطينة ، الجزائر ، ص4.

55 انظر: بلقاسم الزغداني: "الغربلة قوام الحياة " ، مجلة الشريعة النبوية المحمدية ، السنة الأولى ، العدد 4 ، الاثنين 15 ربيع الثاني 1352 / أوت 1933 ، قسنطينة ، الجزائر ، ص 3-5.

(**56**) محمد البشير الإبراهيمي : **أثار البشير الإبراهيمي** ، ج1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1978 ، ص 113.